

نفوسنا التي يجب أن تتغير.. بقلم: الإمام حسن البنا



الجمعة 1 مايو 2020 06:15 م

في شهر القرآن..

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ بُعِثُوا مَا يَنْفُسِيهِمْ﴾ (الرعد: من الآية 11) حين أنزل الله القرآن على نبيه محمد- صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- وقرأه نبينا الكريم على الأمة العربية حينذاك عمل في نفوسهم عمل السحر، وبلغ أثره أعماق هذه القلوب، وتغلغل في حنايا الضلوع، وتمكّن من مكامن الأرواح، وبدّل الله به هذه الأمة خلقاً آخر، فكان البون بعيداً، والفارق عظيماً بين الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها.

ولقد أثر القرآن في نفوس المشركين والمؤمنين على السواء، ولكن أثره في نفوس المشركين كان أثراً وقتياً سلبياً، وكانوا يفرون منه ويضعون الحوائل فيما بينهم وبينه، ويقول بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: من الآية 26).

أما المؤمنون فكانوا يستمعون القول فينبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب، فكان أثر القرآن في نفوسهم دائماً إيجابياً، بدلهم وغيرهم وحولهم من حال إلى حال، ودفعهم إلى كرائم الخصال وجلال الأعمال ﴿اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَتَابِي تَفْسِيرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)﴾ (الزمر).

وها هو القرآن الكريم يُتلى علينا ويقرأ بين ظهرانينا، فهل تغيرت به نفوسنا وانطبعت عليه أخلاقنا، وفعل في قلوبنا كما كان يفعل في قلوب أسلافنا؟.

لا أيها الإخوان، لقد صرنا نقرأ القرآن قراءةً آليّةً صرفةً، كلمات تتردد ونغمات تتعدد، ثم لا شيء إلا هذا، أما فيض القرآن وروحانيته وهذا السيل الدافق من التأثير القوي الفعّال، فمن بيننا وبينه حجاب، ولهذا لم تكن صورة من النسخة الأولى التي تأثرت بالقرآن وتبدّلت نفوسها به، وها نحن الآن نريد أن نفتدي بهذا السلف، ونريد أن تنهض من جديد في نفوس المسلمين وشعوب المسلمين أمة القرآن ودولة القرآن.

فهل لنا أن نتصل بالقرآن صلةً حقيقيةً تطهر من أرواحنا وتغير من نفوسنا؟

إننا نُؤثر الدنيا ونُحبها من كلّ قلوبنا، فهل لنا أن نستمع إلى قول الله العلي الكبير: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)﴾ (التوبة)، وقوله تعالى: ﴿تَلْ تُؤْتُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَنْتُمْ (17)﴾ (الأعلى)، وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: من الآية 96)، فنؤثر ما عند الله على ما عند أنفسنا ونحرص على مرضاته وجزيل مثوبته ولا نعبأ بما يُصيبنا في سبيل الحق الذي ندبنا إليه من أذى في النفوس أو الأموال، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ولن يصيبنا إلا الخير بإذن الله ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174)﴾ (إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوايَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (175)﴾ (آل عمران).

وإننا ننظر إلى الأسباب نظرة هي كل شيء، ونهمل في حسابنا إرادة العلي الكبير، ومناصرته لأوليائه من حيث لا يحتسبون، وتأبيده إياهم بما يعلم الناس وما لا يعلمون، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ تَالِعٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)﴾ (الطلاق)، ويقول تعالى ﴿وَتُرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَتُمْكِنُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (القصاص)، إلى غير ذلك من الآيات التي تكل الأمر كله لله من قبل ومن بعد.

فهل لنا أن تتغير نفوسنا بهذا الوحي الرباني، والوعد القرآني، والتنزيل السماوي، فنكون بما في يد الله أوثق منا بما في يد أنفسنا؟!.

إننا نغضب لأوهى الأسباب، ونتقاطع وتتدابر بسبب وبغير سبب، وتفرق بيننا الآراء والأهواء والشهوات والمنازعات والدنيا، والعرض الزائل والوهم والأمنية الباطلة، والغاية الفاشلة الزائلة، والله يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْتُنْجُمْ بِنِعْمَةِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: من الآية 103)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: من الآية 10)، ويقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ

فهل لنا أن نتأثر بهذا الخطاب الكريم فننسى الصغائن والأحقاد، ونطهر النفوس والصدور، ونجتمع على كلمة الله، ونكون إخوانًا لذاته متحابين بروحه متعاونين على مرضاته، إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرَجِهِمْ خَافِضُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُخَافُونَ (9) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)﴾ (المؤمنون).

فأين نحن من هذه الأوصاف الكريمة والسمات الفاضلة التي وسم الله بها عباده المؤمنين.

الخشوع في الصلاة والمحافظة عليها، والإعراض عن اللغو في القول، والعمل على تجنب ما لا يفيد ولا ينفع، وكل صغير وكبير مستطر، وأداء الزكاة، زكاة الفطر وزكاة المال إبراءً للذمة وتطهيرًا للثروة ومنعًا للفتنة وبرًا للفقراء والمساكين.

وحفظ الفروج وصيانتها عن غير ما أحل الله لها، وحفظ ما يتصل بها من العين والأذن والشم والأنف واليد والرجل، وقديمًا قال الشاعر العربي:
لعمرك ما أهويت كفي لربيبةٍ ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا قاذني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأبي عليها ولا عقلي

حفظ الفروج سمواً بالعاطفة، وعلواً بالروح، وتنزيهاً للنفس وصيانةً للعرض، وصرعاً للشيطان، وإرضاءً للرحمن، وأداء الأمانة والوفاء بالعهد أداءً للحق، واعتدالاً بالنفس، وتوفيراً للثقة، وإقامةً لميزان التعارف والتعاون بين الناس.

أين نحن الآن من هذه الأوصاف القرآنية التي أضافها الإسلام على أبنائه من المؤمنين الصادقين، والتي تخلق بها سلفنا، فكانوا خير أمة أخرجت للناس؟!.

هذه نماذج من تعاليم القرآن طبع بها نفوس أسلافنا فانعكست على مرآة أخلاقهم وأضاءت أشعة نورانية للناس، وهدتهم بهم سواء السبيل.

فهل تتغير نفوسنا فتتغير أحوالنا؟

اللهم حقق الرجاء وأجب النداء.. آمين.

المصدر: مجلة الإخوان المسلمون - السنة الأولى - العدد 21 - ص3، 4 - 18 رمضان 1362 هـ / 18 سبتمبر 1943 م.